الإسلام.. وحوار الحضارات

بقلم:
الأستاذ كامل الشريف
الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً: الجذور التاريخية للحوار:

الحوار بين الإسلام والحضارات المختلفة وخصوصاً المسيحية ليس ظاهرة جديدة، فالحقيقة أنه لم ينقطع يوماً منذ ظهر الإسلام في جزيرة العرب، فقد حاور المهاجرون المسلمون رجال الكنيسة في الحبشة قبل الهجرة، واستقبل الرسول محمد عليه السلام وفد نصارى نجران في يثرب "المدينة المنورة" وسمح لهم بالصلاة في مسجده وحاورهم في أمور الدين، وأبرم العهود مع القادة المسيحيين في إمارات الخليج بعد غزوة تبوك، ومع أن هذه المحاورات كانت تهدف إلى إقناعهم برسالة الإسلام، ودعوتهم للإيمان بها إلاّ أنها كانت على الأغلب تنتهي إلى اتفاقات أو معاهدات تضمن حسن الجوار وحريّة العبادة، وتأمين التجارة، كما كان بعضها ينص على دفع (الجزية) التي كانت أحد الأساليب في التعبير عن الولاء للنظام القائم، مما لا يدخل في نطاق هذا البحث.

ومن ذلك أن وفد نجران طلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم واحداً من أصحابه ليكون قاضياً بينهم في خلافاتهم، وختموا طلبهم بالقول «فإننا نراكم أهل أمان وثقة» ابن هشام.

على أن من المفيد أن نذكر أن قاعدة الحوار مع أهل الكتاب كما سجلها القرآن الكريم كانت التذكير بالأصل الواحد للأديان السماوية، وإحياء الفطرة التي أودعها الله في أعماق الإنسان وهي الاتجاه إليه سبحانه والتسليم لمشيئته أو (الإسلام) له، ومن هنا نجد الإشادة في القرآن الكريم بالأنبياء السابقين وتسجيل نضالهم من أجل فكرة الإيمان وإبراز جهادهم في سبيل الحق والخير، ومع أن القرآن قد أشار للتأثير البشري في الكتب السماوية السابقة، - كما ذكرنا - إلاّ أنه اعترف بأصلها الرباني وكرر

الدعوة لأصحابها لإعادة دراستها على ضوء هذا الأصل كما ذكرنا فقال «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» ٩٧/٣، ولا جدال أن النظرة الإسلامية التي حكمت العلاقة منذ بداية الدعوة لا تزال تصلح قاعدة للعلاقات في العصر الحاضر، إذ لا يمكن أن يكون الحوار مجدياً إلاّ إذا ارتكز على قاعدة من الاعتراف المتبادل، وإذا كان الإسلام قد سبق بإرساء هذه القاعدة، فإن مما يدعو للتفاؤل أن المعسكر المسيحي - أيضاً - قد اتجه في الآونة الأخيرة للقيام بدوره فيها، مما سنتعرض له في مكانه من هذا البحث.

والقارئ للقرآن الكريم يلاحظ بوضوح أنه مائدة مفتوحة للحوار في كل اتجاه، فآراء أهل الكتاب والمشركين تعرض لها ورد عليها، والجبابرة أمثال فرعون وهو التجسيد الحي للطغيان والجبروت يقولون ما لديهم ويأخذون الجواب، بل حتى المشركين والكفار يثبت القرآن الكريم آراءهم الفاسدة، ويرد عليها، ولكأن الله عز وجل يعلم قسوة الإنسان على أخيه الإنسان. ولذلك نجد القرآن في أكثر من موضع يختم الجدل بمثل قوله تعالى " فالله يحكم بينكم يوم القيامة " وحين حط الرسول صلى الله عليه وسلم الرحال في المدينة المنورة كان من أوائل الخطوات التي اتخذها في إنشاء الدولة الإسلامية الأولى هي إصدار " وثيقة المدينة " أو عهد المدينة التي وضعت المسلمين واليهود والقبائل العربية في إطار إنساني واحد، وحددت لمجتمع المدينة رسالته في دعم الحق والخير فكانت أسبق في إنسانيتها العالمية من كل القوانين والمعاهدات العالمية مثل قانون حامورابي أو الماجنا كارت، وقد علق السير مونتجمري وات في كتابه «محمد في المدينة» مطولاً على معاهدة المدينة فذكر أنها أدخلت اليهود في الأمة الواحدة، كما أبدى إعجابه أنها كانت معاهدة شاملة وأنها ذات طابع دفاعي ولم تتعرض لأي عمليات هجومية من جانب المسلمين، مما يعكس روح الإسلام الحقيقية في رفض الحرب إلا إذا كانت وسيلة ضرورية لردع العدوان أو الدفاع عن العقيدة

والأوطان، إلتزاماً بالتوجه القرآني «ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» أما نظرة الإسلام الأساسية لليهود وأهل الكتاب عموماً والافتراض بأنهم جزء من أمة المؤمنين الواحدة فقد لخصه القرآن الكريم أكثر من مرة «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» ٩٢/٢١ وليس من قبيل المصادفة أن تأتي أمثال هذه الآيات الكريمة مباشرة بعد سرد قصص النبوات السابقة، مما يعني أن الإسلام قد انطلق دائماً من الأمل أن يكون المؤمنون بالله الواحد أمة واحدة من دون الناس، وقد أبدى السير مونجمري وات أسفه أن اليهود كانوا أول من أحبط هذا الامل الجميل حين قال في كتابه المشار إليه «أنه لشيء مثير للاهتمام أن تتخيل ماذا سيحدث لو أن اليهود استجابوا لمحمد بدل أن يعارضوه؟ لقد كان من الممكن أن يحصلوا منه على اتفاقيات مربحة، منها ضمان الاستقلال الديني، وعلى هذا الأساس أن يكونوا شركاء في الإمبراطورية العربية. ثم تساءل الكاتب بحسرة «كيف سيكون شكل العالم اليوم لو أن ذلك حدث»؟

على أن العلاقات بين الإسلام والمسيحية - كذلك - لم تكن دائماً وديّة، ذلك أن الحرب لم تلبث أن اشتعلت بين الفريقين على أرض الشام ومصر وشمال أفريقيا لأسباب جيو - استراتيجية قبل أن تصل أمواجها للقسطنطينية عاصمة بيزنطة التاريخية نفسها، ولكن بالرغم من هذا التطوّر فإن الحوار الذي بدأ في المسجد المتواضع في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، استمر على صورة أو أخرى، ويمكن للباحث الآن أن يفرّق بين نوعين من أساليب التعامل بين الناحيتين، أسلوب الحرب، التي انطلقت من عوامل خاصة أملتها الظروف السياسية والاستراتيجية السائدة، والحوار ذي الطابع الفكري الذي اعتمد على البرهان والحجة، حتى لو اكتسب أحياناً مسحة من القسوة والتهجّم، وحين يتلفت المرء للوراء لا يملك إلاّ أن يعجب بدرجة التسامح وسعة الأفق التي حكمت الحوار الإسلامي - المسيحي في أطواره المختلفة، وعمق الأثر الذي تركه على الفريق الآخر، في حالات السلم

أو الحرب على السواء.

ففي ديار الشام - مثلاً - نجد العرب يقتبسون من الدولة الرومانية الشرقية بعض نظم الدواوين والحساب والهندسة وصك النقود، وما توصّل إليه علماؤهم في الفلك والطب أما النفوذ العربي - الإسلامي على بيزنطة فقد وصل تأثيره إلى العقائد والقوانين، ففي فترة مبكرّة من تاريخ العلاقات العربية - البيزنطية راسل الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز الإمبراطور ليون الثالث، وجادله حول التماثيل والقديسيين والبعث وخلود الروح حتى ذهب بعض مؤرخي الدولة البيزنطية إلى الاعتقاد أن هذه المراسلات والاتصالات قد أثرّت في السياسة التي اتبعها الإمبراطور حيال التماثيل المقدّسة، كما تسرّبت إلى مجموعة القوانين التي عرفت باسمه (ECLOGE) ومما يدل على عمق هذا التأثير أن أحد آباء الكنيسة البارزين وهو القديس يوحنا الدمشقي (JOHN Damascus) الذي تصدّى لسياسة الإمبراطور ليون الثالث، قد كتب أبحاثاً جادل فيها العقائد الإسلامية تحت عنوان (مجادلات إسلامية - مسيحية)، وذلك لتطويق التأثير الذي أحدثته العقائد الإسلامية داخل البلاط الإمبراطوري ونفر من رجال الدين، على أن من المفيد أن نذكر أن القديس يوحنا كان يكتب رسائل ينتقد فيها العقيدة الإسلامية وهو يتنقل في أرجاء الدولة الأموية بين دمشق والقدس، وبعد أن سلخ فترة من عمره موظفاً كبيراً في قصر الخليفة الأموي، ويتخذ اسماً عربياً هو (المنصور)، مما يذكرنا بحالة مشابهة مع اليهود هي حالة موسى بن ميمون الذي كان يراسل الجاليات اليهودية في العالم ويكتب كتابه (دلائل الحائرين) الذي حاول فيه الزعم بسمو اليهودية على الإسلام بينما كان يعمل طبيباً في قصر السلطان الأيوبي في مصر، ولا يمكن أن نتحدّث عن الحوار الإسلامي - المسيحي في العصور الوسطى، دون أن نشير إلى حلقة بارزة من الحلقات التي آلت إلينا عبر وثائق معتبرة، ونعني بها المحاورات التي دارت في زمن الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (٨١٣ - ٨٣٤) وبين عبدالله

الهاشمي، وعبدالمسيح الكندي، وهي محاورات تناولت أصول العقائد الدينية، وكان الخليفة المأمون يحضر بعض جلساتها بنفسه ويشارك في التعليق عليها.

إن غرضنا من الإشارة لهذه الوقائع التاريخية لا يقصد منها بحال تمجيد المسلمين أو الإشادة بروح التسامح لديهم، ولكن للتأكيد على بعض الحقائق التي يمكن أن تشكّل منطلقات للحوار في العصر الراهن وهي:

أولاً : عدم وجود عقبات (عقائدية) تمنع المسلمين من الدخول في الحوار، بل نجد القرآن

يحث على هذا الحوار ويضع له إطاره الأخلاقي "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن" (٤٦/٢٩).

ثانياً: إن الحوار من وجهة النظر الإسلامية ينطلق من الاعتراف بالأديان السماوية

السابقة وكتبها المقدسة ورسلها الكرام بالرغم من وجود خلافات جوهرية، ويدعو الطرف الآخر لمثل هذا الاعتراف حتى تكتمل قاعدة الحوار البنّاء.

ثالثاً: إن الحوار يقنع باللقاء على الحد الأدنى، بافتراض أن الاتفاق مهما كان صغيراً

في البداية إلاّ أنه يخلق (ديناميكية) خاصة ترتاد به آفاقاً جديدة في طريق الوفاق

﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [**آل عمران** : ٦٤].

رابعاً: إن الحوار لا يقتصر على أمور الدين ولا ينتهي عند جدار مسدود حين يتعذر

النجاح فيها لسبب أو آخر، ولكنه يتجه إلى تحقيق التعاون في نصرة الحق

والخير، وفتح قنوات الاتصال للإفادة من التجربة الإنسانية في مجالاتها الواسعة.

وأعتقد أن أمثال هذه المنطلقات التي حكمت الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى لا تزال صحيحة، وخصوصاً إذا استمرت البوادر الإيجابية التي ظهرت في الكنيسة مؤخراً إزاء الإسلام والتي سنتحدث عنها بعد قليل.

ثانياً: أمة الشهادة:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»، (١٤٣/٢) هذه الآية الكريمة من كتاب الله تحدد دور الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته، كما تحدد دور هذه الأمة بين سائر الأمم، فهي خير الأمم بما تنزل عليها من آيات الله والحكمة، وهي تقع في مكان وسط بين العقائد الغالية، سواء تلك التي تميل إلى الزهد المفرط كالبوذية والهندوكية، أو التي تنزع إلى المادية الجافة وتحيل حياة الإنسان إلى أرقام وآلات كاليهودية وما تفرع عنها من أفكار مادية إلحادية كالشيوعية والمدارس الاشتراكية المتطرفة. وهذه الصفات تجعل الأمة الإسلامية جديرة بأن تكون شاهداً على الأمم لأن "الشاهد" لا بد أن يكون ملماً بأحوال من يشهد لهم أو عليهم، كما يتحتم أن يكون معتدلاً في آرائه وأحكامه، ولذلك نجد القرآن الكريم يتحدّث عن الأمم السابقة وظروفها وتجاربها، كما يشيد برسل الله وكتبهم جميعاً ويجعل الإيمان بهم جزءاً لا يتجزأ من تراث النبوة ومسيرة الوحي الرباني ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٨٤]. وقد يكفي أن نقارن بين صفات العصمة والكمال التي يسبغها القرآن الكريم على أنبياء الله، والصور الشائكة التي تقدمها التوراة مثلاً حين تلحق بالرسل الكرام من الجرائم والانحرافات ما لا يليق بالأفراد البسطاء فضلاً عن النخبة السامية التي صنعها الله على عينه واختارها لحمل كلماته ورسالاته، ولقد عبّر الرسول

صلى الله عليه وسلم عن دور الشاهد في عدة أحاديث منها ما أورده البخاري في كتاب التوحيد الذين يتنكر لهم أتباعهم يوم القيامة فيهرعون إلى الاستشهاد بمحمد وأمته، وقد لخص النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا البخاري من كتاب الاعتصام قول الله عز وجل "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" بأن الوسطية تعني العدل ومما ينسب إلى الإمام عليّ كرّم الله وجهه قوله في هذا المقام «خير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي».

وقد علّق الشيخ محمد عبده - رحمه الله - في تفسير «المنار» على هذه الآية الكريمة بقوله: «إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب إفراط، والنقص عنه تفريط، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة فهو شر مذموم»، وقال الشيخ أيضاً: «إن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفاً به، ومن كان متوسطاً شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب، وثانيهما من الجانب الآخر، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة الطرف الآخر أيضاً».

والإسلام هو آخر الأديان ورسوله صلى الله عليه وسلم هو خاتم حلقات النبوّة، والقرآن الكريم جاء مهيمنا على الكتب السالفة يؤكد ما بقي منها من آثار الوحي ويصوّب ما ألحقه الناس عليها من التحريف والتبديل، كما يذكر صاحب المنار في تعليقه على الآية التالية ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [**المائدة**: ٤٨]. ولقد ألحق التحريف البشري بالتوراة والإنجيل رموزاً وطلاسم ما أنزل الله بها من سلطان، وليس بوسعها أن تصمد أمام انتشار العلم والمعرفة، فأخذت تذوب كما يذوب الشمع تحت أشعة الشمس المشرقة، وبدأ أتباع الديانتين يتمردون على الخرافة كما يظهر في عشرات الكتب التي تفرزها المطابع.

لقد تحوّلت التوراة الراهنة نتيجة للتحريف والتبديل إلى كتاب يحث على استعباد الشعوب، وممارسة الفتوحات المسلحّة باسم «الشعب المختار»

والإنجيل تدور عقائده حول وثنية التثليث ومراسم القداس، وشخص المسيح الذي جعلته الكنيسة إلهاً أو ابن الإله، تعالى ربنا عن ذلك علوّاً كبيرا.

ولكي تنجو المسيحية واليهودية من هذا الطوفان وتواجه تطوّرات الحياة الحديثة، فقد كان عليها أن تقدّم تنازلات كبيرة تمس أصول العقيدة، فماذا يبقى من اليهودية لو زالت «خرافة الشعب المختار» وتعطلت الحوافز المحرّكة لاستعمار الشعوب الأخرى، وماذا يبقى من المسيحية لو عاد المسيح بشراً رسولاً، وزالت مع الربوبية الزائفة مراسم القداس وما يتبعها من الأساطير والخرافات؟.

لقد بقي الإسلام راسخاً متزناً في كتاب ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [**فصلت**: ٤٢] وفي الوقت الذي تصدّر فيه كتب ومقالات وأفلام في الغرب، تشكك في وجود موسى وعيسى بالموازين التاريخية أصلاً وتضرب جذور المسيحية واليهودية من الأساس، يؤكد الإسلام رسالتيهما ويشيد بهما كرسولين كريمين من رسل الله، بل يدعو أتباعهما للتمسّك بالحق الذي بقي في التوراة والإنجيل بعيداً عن الغلو والتحريف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ** ﴾ [**المائدة**: ٤٧] وقوله تعالى في حق التوراة ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾ [**المائدة**: ٤٤].

وقد يكفي أن نذكر ما أورده الكاتب الكنسي الفرنسي ميشيل لولونغ Michel Lelong في كتابه «الإسلام والغرب» فبعد أن سرد عدداً من كبار الكتّاب الذين انتقدوا جذور العقيدة المسيحية وخاصة ما يتعلق بألوهية المسيح المزعومة أمثال رودنسون، وفاهانين، وفان بيرو، وهارفي كوكس، وكريستين دوكوك، وهنري بورجوا، وغيرهم الذين أرادوا - حسب رأيه - تحرير المسيح من التفسيرات الخاطئة، ووضعه في مسار التاريخ انتهى ميشيل لولونج للقول: «وفي نهاية القرن العشرين فالذي يبدو لنا نحن الغربيين أننا نحتاج إلى الإسلام لأننا فقدنا الإحساس بالألوهية، وأن اغراءات الثقافة الحديثة قد حوّلت إيماننا بالرجل «المسيح» أكثر من إيماننا بالله».

وهذا الصراع المرير في قلب المؤسسات الدينية اليهودية والمسيحية بين نور الله ووحي السماء من جهة، وبين دين الغلو والتحريف البشري من جهة أخرى، يوشك أن يعصف بالدينين ويقوضهما من الجذور، مما يفتح بابا واسعاً أمام الإسلام باعتباره المهيمن والشاهد لكي يدعم الوحي الإلهي، ولن يتأتى ذلك إلاّ من خلال حوار علمي يديره رجال مؤمنون يلتزمون شريعة الله ويلمون بالكتب السالفة والتيارات التي تدور حولها والمواقف التي يجب أن يقفها المسلمون منها، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الإسلام يقف موقفاً معاكساً لاتباع الديانتين اليهودية والمسيحية سواء في نظرة كل منهما للآخر كما يقول القرآن الكريم «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء» أو في نظرتهما المنكرة للإسلام والعاملة على هدمه، نجد الإسلام حريصاً على الديانتين حامياً لهما، ولا يريد أكثر من إزالة التحريف والتشويه الذي ألحقه البشر بهما، وشتان بين الموقفين.

ولا شك أن مما يساعد المسلم الواعي على الحوار مع الأديان والحضارات الأخرى، أنه يدخل الساحة مسترخياً، واثقاً من نفسه ومن عقيدته، فهو لا يحتاج إلى تنازلات أو تراجعات، فالإسلام الذي يمثله يعترف بالأديان الأخرى -كما اسلفنا - ويجل كتبها، ورسلها، وان اختلف مع تلك الكتب فهو خلاف ينطلق من الاعتراف والاحترام، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعطي نفسه أي حق أو ميزة على الأنبياء الآخرين، بل يعتبر نفسه الحلقة الأخيرة في سلسلة النبوات التي بدأت مع آدم عليه السلام، وقد أورد الإمام أحمد في مسنده قوله صلى الله عليه وسلم «إن مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها، وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبناء ويعجبون منه، ويقولون لو تم وضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة» وقد أورد أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التخيير بينه وبين أحد من الأنبياء، وفي حديث آخر عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنه قال

«ما ينبغي لعبد أن يقول إنني خير من يونس ابن متّي» وحين خاطبه رجل بقوله «يا خير البرية» قال:- ذاك إبراهيم سنن أبي داود، كتاب السنة.

ثالثاً: أمام ثورة العلم:

إن تطورات الزمن تؤكد الحقيقة التي أشار إليها الكاتب الثيولوجي الفرنسي وغيره عن دور الإسلام في قيادة جبهة الإيمان أمام قوى المادية والإلحاد، وأنه وحده المؤهل لهذا الدور الرباني، وبديهي أن المسلمين لن يكون بوسعهم أداء هذا الدور إذا شاع الخوف، وعدم الثقة، وتغلبت روح الإنطواء على النفس، والانعزال عن التيار العالمي، ذلك لأن الإسلام هو دين الإنسانية في كامل حدودها وتخومها كما يحدد القرآن الكريم أبعاد الرسالة «وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيرا» وقوله صلى الله عليه وسلم فيما أورده الإمام مسلم في صحيحه "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي (أولها) كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

وإذا كان الله سبحانه قد ختم الوحي برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنه - جل وعلا - تعهد بدوام الهداية الربانية «فإنما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى» ١٢٣/٢٠ وقوله سبحانه «وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم ما يتقون» ١١٥/٩.

ومن أدلة ختام النبوّة - كذلك - أن الفترات الزمنية بين الأنبياء السالفين لم تتجاوز المائة عام كما رصدها الفيلسوف باسكال في أفكاره، المشهورة، وها قد مضى قرابة ستة عشره قرناً دون أن يظهر نبي يحمل كتاباً، فهل يعني ذلك أن الخالق القدير تخلّى عن مواكبة عباده بالهداية الربانية لا سيّما في زمن يفرز كل يوم مسائل ومشكلات معقّدة وغير مسبوقة؟! أن الحل الوحيد لما يظهر من تناقض هو أن الإسلام آخر الأديان يحمل في إهابه عناصر التطوّر والتجديد التي يحتاجها الإنسان، أو كما ذكر الفيلسوف جارودي في أكثر من كتاب من كتبه: أن الإسلام دين مفتوح ليس له سقف يقف عنده، وأنه يعين على التطوّر الإنساني ويقدّم له الغطاء

الشرعي حتى لا ينفلت ويظل مرتبطاً بالإيمان وما يأتي معه من الاستقامة والالتزام الخلقي.

ولقد مارست الأمة الإسلامية هذا الدور بكل أبعاده الإيمانية والعملية في أجيال كثيرة، وكان المسلمون هم الطلائع والروّاد الذي اقتحموا الساحات المجهولة في ميادين العلم والمعرفة، كما يذكر روجيه جارودي في كتابه القيّم «الإسلام في الغرب قرطبة عاصمة الروح» وبعد أن عدد جارودي إسهامات المسلمين في فروع المعرفة من الفلك، إلى الحساب إلى الجغرافيا إلى الطب، مما يجعل المرء يدرك أنه لا يوجد ميدان من هذه الميادين إلا وجد في جذوره عالم مسلم يمهّد الطريق ويضع قواعد الدراسة ويحدد أساليب البحث، بحيث يأتي جهد العلماء على تعاقب الأجيال إضافات على هذه الأسس الراسخة، على أن أهم إسهامات المسلمين على الإطلاق هو ذلك الربط المحكم بين العلم والإيمان فالقرآن الكريم يشتمل على أكثر من سبعمائة آية تحض على العلم واكتشاف الكون، والأمر فيها كلها من الله سبحانه مصدر النور والمعرفة الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم».

وهدف العلم الأخير - في المفهوم الإسلامي - هو إرضاء الله والتقرّب إليه كما يقول جل جلاله «ونفصّل الآيات لقوم يعلمون" وفي الطريق إلى معرفة الله يصبح العلم - كذلك - وسيلة لخدمة عباد الله، وإسعادهم، وحين ضعف العالم الإسلامي وتفككت عراه تحت وطأة الهجمة الاستعمارية خفتت مثل هذه المبادئ وانفلت العلم عن مدار الإيمان، ومضى هائماً يفتك ويدمّر دون حساب، وكان من نتيجة ذلك حروب عالمية حصدت البشر بالملايين، وأسلحة فتّاكة تدمّر المدن والقرى، ومن الواضح أن العقل الإنساني لا يزال قادراً على المضي في هذا الشوط المرعب واختراع المزيد من أسلحة الفتك الجماعي ما لم تعد اللحمة التي وضعها الإسلام بين العلم والإيمان، ولا شك أن هذه هي واحدة من الإسهامات الكثيرة التي يمكن أن يقدمها الإسلام للحياة المعاصرة والتي يصعب تحقيقها دون أن يعرّضها

المسلمون ويذكّروا بها أقرانهم عبر الحوار المنشود.

نذكر هذا الميدان لأهميته الخاصة دون أن نغفل تحديّات كثيرة يواجهها العالم المعاصر ولها حلول واضحة في الشريعة الغرّاء، ولا تحتاج سوى أن يعرضها المسلمون بأسلوب علمي خلال حوار تخيّم عليه الثقة، والمودّة، والرغبة في الاستماع.

رابعاً: عقبات أمام الحوار:

لقد رأينا أنه لا توجد ثمة عقبات دينية تمنع الحوار من الجانب الإسلامي، لكن سيكون من التبسيط الشديد أن نقف عند هذه الحقيقة وحدها، دون أن نشير للعقبات الموضوعية التي تجعل الحوار محفوفاً بالصعاب، والتي تحتّم جهداً خاصاً لفهمها وتحديد آثارها، بهدف التغلّب عليها، ويمكن تخليص العقبات فيما يلي:

أولاً: العقبات الدينية - «الثيولوجية»:

لا يمكن التقليل من أهمية القضية "الإيدولوجية" التي تلقي ظلها على مناخ الحوار، ومهما تكن المحاولات لتحاشي الخوض في الخلافات الدينية، إلاّ أنها كثيراً ما تفرض نفسها على النقاش، وخصوصاً إذا انتقلت لمستوى الجمهور الذي يسهم في تحديد طبيعة العلاقات ويؤثّر فيها وليس هناك من سبيل لمنع التساؤلات التي تدور في أذهان المسلمين حول فكرة التثليث وطبيعة المسيح عليه السلام، والصلب، والقيامة، والخطيئة الأولى والخلاص وغيرها، ويوازي ذلك في الأهمية ما اشتمل عليه الإنتاج الأدبي لأكبر العقول في الغرب من طعن على الإسلام وكتابه ورسوله، ولا تعوزنا الأدلة على هذا الاستنتاج، وقد يكفي أن نشير لمكانة الرسول محمد كما صوّرها «دانتي» في الكوميديا الإلهية، أو أوصافه في كتاب مفكّر كبير ينسب إليه عصر كامل من الأدب والفلسفة هو فولتير، ولا جدال أن هذا التراث بجوانبه المختلفة قد ألقى ظلالاً على مناخ الحوار في مرحلة معيّنة إلاّ أن تأثيره يمكن أن

يخف في المستقبل وخصوصاً مع ظهور العديد من المؤلفات والأبحاث التي تصدر عن الدوائر المسيحية وتعالج فيها قضايا إسلامية بروح علمية موضوعية. بالإضافة إلى أن أكثر القضايا والمشكلات الاجتماعية لها حلول في الشريعة الإسلامية لا يوجد مثلها في الشرائع الأخرى، ومن المفيد أن يرجع إليها المحاور المسلم لأنها تضع ثقل الدين وراء العلاج، ثم إنها دليل على صلاحية الإسلام وتأثيره الإيجابي في مسيرة الإنسان المعاصر.

(أ) الاستعمار الغربي:

لا يمكن أن نجد ساحة يمكن أن تتأثر بالتاريخ تأثّراً سلبياً كساحة العلاقات الدينية، وإذا نحن أخذنا عبارة توماس جيفرسون جديّاً حين قال: "أن التاريخ يعلّم الماضي ليكون حكماً على المستقبل فإننا يمكن أن نصاب بإحباط كبير، ذلك لأن تاريخ العلاقات الدينية في مجموعه لم يكن - دائماً - تاريخاً تحكمه المودّة أو التفاهم. ومن سيئات هذا الواقع أن العلاقات المستقبلية يمكن أن تتأثر به بسهولة فائقة، وخصوصاً إذا لم يكن الانفصال واضحاً بين الحاضر والماضي، وكانت المراحل متداخلة كما هو الحال بالنسبة للعلاقات المسيحية - الإسلامية، فالحرب الصليبية ليست جزءاً من الماضي كما يظن البعض والاستعمار الغربي الذي نزل الأراضي الإسلامية منذ القرن الثامن عشر الميلادي كان يحمل شعارات مسيحية لا تزال آثارها قائمة، كما يقول فلوبير في قاموسه «عن الأفكار الموروثة» عن الحروب الصليبية «وأنها لم تكن إلاّ مغامرة محسوبة لترويج تجارة فينيسيا».

إلاّ أن الطابع الديني الذي رسم في أذهان الشعوب الإسلامية له ما يبرره تماماً، نقول ذلك لا لكي نهيج عداوات نائمة. ولكن لنرسم خلفيّة تاريخية واقعية تؤثّر في العلاقات الراهنة، وواضح أننا لا نملك أن نغيّر التاريخ أو نفسّره تفسيراً يتفق مع ميولنا وأهوائنا، ولكن من المؤكد أننا نستطيع أن نقلل من تأثيره على الواقع الراهن إذا توفّرت النوايا الحسنة وتغلّبت الأسباب التي تدعو للحوار على أي اعتبار آخر، كما أن استحضار

هذه الخلفية التاريخية يمكن أن يعين على تحديد خطوات تتسم بالحذر والدقة في استقبال الحوار، والقناعة بالنتائج العملية الممكنة في ظل الظروف السائدة.

لقد كان أكثر قادة الاستعمار من الساسة والعسكريين ينطوون على دوافع دينية، فالحملة التي افتتح بها الملك البرتغالي يوحنا الثاني سلسلة الحملات على أفريقيا الغربية في منتصف القرن الخامس عشر كان هدفها المعلن هو الوصول إلى الحبشة المسيحية، والملك شارل العاشر الفرنسي ظفر بتأييد الدول الأوروبية حين أطلق على حملته الجزائرية عام (١٨٣٠) اسم "الحملة المسيحية" وقد يزيد الأمر تعقيداً في المرحلة الراهنة سهولة تداول الآراء غير المسؤولة عبر وسائل الإعلام الحديثة، مما يظهر وكأننا نعيش امتداداً للتاريخ الذي نحاول نسيانه، ومن أمثلة ذلك عنوان ضخم في الصفحة الأولى من جريدة الهيرالدتربيون الشهيرة تقدّم رحلة البابا الأخيرة لأفريقيا باعتبارها «حملة صليبية لمحاربة انتشار الإسلام» وكأن انقضاء ست عشرة قرناً لم يغيّر شيئاً على الطبيعة، وبقي الشعار الذي أعلنته أوروبا قائماً على حد تعبير فنسنت مونتيه (Vincent Monteil) في كتابه الإسلام الأسود "أننا نستطيع القول أن السياسة الرسمية للحكم الاستعماري في أفريقيا يمكن تلخيصها في عبارة واحدة هي (أن الإسلام هو عدونا الأوحد)! ولم يستطع خطاب البابا الودي في المغرب في ختام الرحلة الإفريقية المذكورة أن يمحو الآثار التي بشرّت بها جريدة الهيرالد التربيون، ومن الأمثلة أيضاً تعليق ظهر في مجلة «الإيكونمست» تعالج فيه تدفق رؤوس الأموال العربية على أوروبا، لتنتهي إلى القول بأن هذا الخطر قد يحتاج إلى «شارل مارتل» اقتصادي لإنقاذ أوروبا على مستوى القائد العسكري الذي واجه المسلمين في «بواتييه» أو بلاط الشهداء. إشارة للقائد الفرنسي الذي هزم عبدالرحمن الغافقي في المعركة المشهورة. (٧٣٢ ميلادية)

(ب) التبشير:

كان من الممكن أن نربط التبشير بالاستعمار الغربي مباشرة، ذلك لأن من الواضح أن كلا منهما كان صنواً للآخر وعوناً له، وليس من قبيل الاتهام الجزافي أن نكرر التعبير الشائع في أفريقيا الإسلامية «أن بندقية الجندي الأوروبي كانت تختفي تحت عباءة القسيس» وقد يكون هذا المنطق موضوع جدل مع المسيحيين الذين يصرون على أن المسيحية دين سماوي، بصرف النظر عن طبيعة السلطة القائمة في البلاد التي يتجه إليها التبشير، وأن الإرساليات قد عملت في ظروف بالغة الصعوبة، وفي بلاد لا يوجد بها ظل للحكم الأوروبي، ومع أن هذه الحجج لا تخلو من المنطق فعلاً بالنسبة لبلاد محدودة، إلاّ أن مما لا شك فيه أن التبشير قد مهّد للغزو الاستعماري في البلاد الإسلامية وفي إفريقيا على وجه الخصوص ثم اعتمد على مؤسساته في الانتشار.

لقد عقد ر. كوبلاند (R. Copland) فصلاً مطوّلاً في كتابه القيّم عن غزاة شرق أفريقيا بعنوان (الغزو التبشيري) تعرّض فيه تفصيلاً لنشاط الإرساليات في أفريقيا الشرقية وصلتها المباشرة بالمؤسسات السياسية سواء في عواصم الدول الأوروبية أو مع السلطات المحليّة التي تمثّل دولة الاستعمار.

يدعوني للإشارة لهذا الحقائق الاتجاه الذي التزمته خلال هذه الورقة من ضرورة التركيز على العقبات القائمة، لا لنقف عندها أو نجمد أمامها، ولكن لندرك تأثيرها الحقيقي على الواقع الراهن، ونبحث في وسائل محوه أو التخفيف منه على الأقل، وفي موضوع التبشير سيكون من غير المفيد للحوار أن ينظر لهذه المشكلة باعتبارها جزءاً من الماضي البعيد الذي يمكن تجاوزه أو الدوران من حوله لأنه لا يزال مشكلة حيّة تواجه المسلمين وتتحدى مشاعرهم وتقف حائلاً أمام بناء الثقة المطلوبة بين الجانبين.

(جـ) ترويج العلمانية:

ويجب ألاّ نتجاوز موضوع التبشير دون أن نشير إلى أحد أبرز الجوانب السلبية التي تركها لدى المسلمين، ويمكن أن يلخص هذا الجانب في عبارة

تنسب إلى المبشر المعروف (زويمر) حين قال ما معناه "أن الغرض من التبشير بين المسلمين ليس إدخالهم في المسيحية ولكن إخراجهم من الإسلام "فقد جاء في رسالة وجهها (زويمر) لأحد مؤتمرات المبشّرين قوله: "أن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية فائدتين: فائدة تشييد وفائدة هدم، أو بالأحرى تحليل وتركيب .. ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات "التعميد" في معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحققون من وجود مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم. وسواء عكست هذه العبارات رأياً شخصياً عابراً أم استراتيجية ثابتة للتبشير، إلاّ أن الممارسة العملية في الماضي والحاضر قد أدت إلى هذه النتيجة، مما جعل الحركات الإسلامية تنحى باللائمة على المدارس التبشيرية في تخريج أعداد من القادة السياسيين الذين يعتنقون الأفكار اللادينية بأسمائها المختلفة، ومما يرجح وجود هذه الاستراتيجية الخاطئة أن ممثلي الحكم الأوروبي في البلاد الإسلامية قد اعتمدوها إبان الحكم الاستعماري المباشر، فقد منع البريطانيون الشباب الأفارقة من تحصيل العلوم الدينية في الأزهر الشريف أو الجامعات العربية الأخرى، أما في أفريقيا الفرنسية فلم تكن الأمور أحسن حالاً ذلك لأن القادة السياسيين والعسكريين اعتبروا الإسلام عدوهم الأول ودعوا إلى القضاء عليه بالقوة أو الخداع، وها هو الجنرال لويس ليون فيدهرب (Louis Leon Faidherb) المندوب السامي الفرنسي في غرب أفريقيا يقول في كتابه عن السنغال، أن التكرور المسلمين شعب ذكي ماهر، ولكن الإسلام أفسدهم وجعلهم سرّاق وكذبة كالعرب.

أما مساعدة القائد ماج (Mage) فقد حذر من التساهل مع الإسلام واعتبر أن أي مهادنة له جريمة لا تغتفر.

وإذا كان هدف تلك السياسة حينذاك إبقاء مناخ الجهل مفروضاً على المسلمين لتسهيل عملية التبشير وثمرة هذه السياسة تظهر الآن حين نجد أن

تشكيك المسلم في دينه قد انتهى به للشك في كل الأديان، وأن هذا المزاج النفسي قد انتهى به للإلحاد أو الشيوعية أو العلمانية المفرطة في نهاية المطاف.

لقد ذهب بعض رجال الدين المسيحي بعيداً في الماضي في محاربة الإسلام والتحريض عليه ورميه بكل التهم مما ترك لدى المسلمين جراحاً عميقة، وقد أطلعني الشيخ إبراهيم إيناس شيخ الطريقة التيجانية في السنغال وزميلي في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي على محاورة حادة دارت بينه وبين المنسنيور ليفيبر (Lefebvre) رجل الدين الفرنسي المعروف، حين كتب الأخير سلسلة مقالات في مجلة فرنسا الكاثوليكية (La France Catholique) حذر فيها من استقلال الدول الإفريقية ذات الأغلبيات الإسلامية، وقال أن ذلك سيؤدي بها للفوضى أو للشيوعية، وزعم أن الفكر الماركسي قد وجد أرضاً خصبة بين المسلمين لأن هناك تشابهاً بين العقيدتين في التعصّب والجماعية واستبعاد الضعيف"!، وقد وجه الشيخ إيناس خطاباً مفتوحاً للمنسنيور أوضح فيه استحالة التوافق بين الإسلام والشيوعية ورفض تهمة الاستبعاد، وتساءل ساخراً إذا كان المسلمون هم الذين يستبعدون أوروبا الآن ويفرضون سلطانهم على أفريقيا؟ ولا ينبغي الاستهانة بمثل هذه التصريحات التي تستقر في الضمائر لفترة طويلة وتعطي حججاً قوية للذين يهاجمون الإسلام، ذلك أن هذا التهجم كان مادة للحديث مع النخبة الإسلامية حين زرت السنغال بعد عشر سنوات من وقوعها. فإذا اعتبرت بعض المؤسسات التبشيرية السياسة التي عبّر عنها (زويمر) سليمة بالنسبة إليهم في مرحلة من المراحل، فإن ضررها قد أصبح واضحاً على الإسلام والمسيحية معاً وهذه النتيجة وحدها تكفي سبباً للدخول في حوار جدّي بهدف محوها وإزالة الآثار الضارة التي ترتبت عليها.

(د) بدايات جديدة:

ومما يدعو للتفاؤل أن المسيحيين ليسوا رأياً واحداً في قضية التبشير

في العالم الإسلامي فهناك من يرى إلغاءه كلية باعتبار المسلمين أهل كتاب سماوي وبالتالي لا يحتاجون لمن يبشّرهم بالإيمان، ومن هؤلاء القس ج، جوينج (G. Gowing) الذي كتب يقول "أن التسرّب الأوروبي المبدئي في آسيا لم يكن توسعاً استعمارياً فحسب، ولكن كان صليبية "علمانية" ضد الإسلام، وهذه الروح استمرت حتى يومنا هذا" ولكي يؤكد نظريته أشار لعدة وثائق كتبها المبشّرون وفيها نقرأ مثل هذه العبارات الخاطئة: «إذا كان المسلمون فقراء، ومتأخرين فإن ذلك يعود للإسلام. دينهم الزائف وعقيدتهم المنحرفة» ويؤكد جوينج «أن هذه الكلمات الساذجة لا تزال - مع الأسف - مسيّطرة حتى الآن»، وقد تساءل ميشيل لولونج في كتابه الذي أشرنا إليه «كيف يمكن أن نوفق بين رغبتنا في محاورة المسلمين ونحن نصر على إضعاف إيمانهم عبر النشاط التبشيري»!

وقد أحرزت جلسات الحوار التي قامت بها المنظمات الإسلامية العالمية للحوار بعض النتائج حين حصلت من الجانب المسيحي على فهم مشترك يعتبر أن أي محاولة للتأثير على العقائد من خلال النشاط الإنساني، وتقديم المساعدات الخيرية هو عمل «غير أخلاقي» ينبغي التوقف عنه، وقد يقال أن مثل هذه البيانات غير ملزمة للذين يعملون مباشرة في الحقل، إلاّ أن مجرد الاعتراف بها من قبل المراجع العليا في الكنيسة يجعلها مادة هامة للنقاش وخطوة في طريق تصحيح العلاقات.

أن المسلمين لا يملكون أن يقفوا موقفاً سلبياً إزاء هذه التطورات ويديرون ظهورهم إليها، ذلك أنها تقتحم عليهم ديارهم في قرارات وإجراءات، وعليهم أن ينتهزوا كل فرصة تتاح لهم لتغيير المفاهيم الموروثة الخاطئة، وخصوصاً وأنه يوجد في الجهة المقابلة عناصر إيجابية كثيرة من العلماء والكتّاب، وقد أشرنا إلى عدد منهم، وواجبنا أن نشكّل معهم جبهة عالمية عريضة تنشد الحق والعدل، وتعمل لإقامة عالم جديد يرتكز على الإيمان الخالص بالله، والسعي للتعايش السلمي بين الأديان والحضارات.

كان لا بد أن ترسم اللوحة الخلفية التي يتحرّك أمامها حوار الحضارات لكي ندرك عمق الآثار التي يمكن أن يتركها على الواقع العربي - الإسلامي ولكي ندرك أن هواجس الشك والتخويف التي تسيطر على بعض المسلمين ليس لها ما يبررها من الحقائق القائمة، على أن هناك هدفاً آخر لإبراز هذه اللوحة الخلفية هو أن نقدّر قيمة البوادر الإيجابية التي وقعت من بداية الحوار في بعض هذه الميادين، والآثار الصحيّة التي تركتها - على قلتها - مما يصلح أساساً لمزيد من المحاولات، إذ لا شيء يغري بالنجاح سوى النجاح نفسه.

بالرغم من اقتناعنا أن الحوار يجب أن ينأى عن الجدل الديني كلما أمكن ذلك وأن يكتفي في هذه المرحلة بارتياد حقول التعاون في الأمور العامة التي تؤثر في حياة الأفراد والجماعات والتي سبقت الإشارة لشيء منها، إلاّ أننا رأينا مع استمرار هذا البحث أن الفكر الديني لم يقف عند الحيّز النظري وإنما فرض نفسه على الواقع السياسي والاجتماعي أيضاً، كما أن من الصعوبة أن نتجاهل الأثر الذي يحدثه هذا الفكر في نظرة كل فريق للفريق الآخر، خصوصاً وأن مصادر المعرفة أصبحت متاحة للجميع مع سهولة انتشار الأفكار عبر شبكات النشر ووسائل الاتصال الحديثة، بحيث لم يعد ممكناً أن تحتكر النخبة من ذوي الاختصاص بحث هذه القضايا، ومع كل هذه الصعوبات الواضحة فإننا نسجّل تطوّرات إيجابية في هذا الميدان الهام.

لقد أشارت وثيقة المجمع المسكوني الثانية (أكتوبر ١٩٦٥) للإسلام باحترام واعتبرت المسلمين موحدين يعبدون الإله الواحد وإذا كانت الوثيقة الرسمية قد وقفت عند هذا الحد ولم تتقدّم لملاقاة الموقف الذي رسمه القرآن الكريم حين قال: ﴿**وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٦] نقول إذا كانت الوثيقة قد وقفت عند هذا الحد، إلاّ أنها أعطت إشارة البدء وفتحت الطريق امام العلماء والمفكرين المسيحيين ـ ربما رغم إرادتها - ليرتادوا آفاقا أوسع في مجال الاعتراف المتبادل، مما يفتح الباب واسعاً أمام خطوات أخرى في هذا الطريق.

لقد اعتبر ج. فان آيس (J.Van. Ess) هذه الوثيقة أساسا حين طالب بخطوة أكثر جرأة قائلاً: "يجب ـ تبعا لذلك ـ ان تنظر الكنيسة باحترام لذلك الذي تجاهلت اسمه (محمد)، لأنه هو الذي قاد المسلمين ليعبدوا ذلك الإله الواحد كما أنه الوسيلة التي تحدث الله من خلالها للإنسان.

ولقد تساءل هانز كونخ (Hanz Kung) في دراسة قدمها الى الندوة الابراهيمية في قرطبة (١٩٨٧) «هل هنالك دين حقيقي واحد، أم أديان كثيرة؟» ودون أن يتزحزح عن اقتناعه بسيادة المسيحية، وهو أمر متوقع - إلا أنه لم يجعل الحقيقة حكرا لها وحدها، وإنما وجد الحق في غيرها من الأديان، وربما أعانه على الوصول لهذا الاستنتاج الفقرات التي استشهد بها في وثيقة الفاتيكان الثاني في وجوب النظر للأديان الأخرى ـ وخصوصاً الاسلام ـ بالاحترام والتقدير.

على ان بعض رجال الدين قد اجتازوا هذه المرحلة لمرحلة اكثر وضوحا وهي إعادة قراءة الكتاب المقدس على ضوء الفهم القرآني لقضايا العقيدة المسيحية، ويمكن أن يمثل هؤلاء رجل الدين الفرنسي البارز ميشال لولنج (Michel Lelong) الذي ناقش طبيعة المسيح والتثليث والصلب وغيرها بجرأة منقطعة النظير استمع اليه يقول في صفحة (٢٠٣) من كتابة (الاسلام والغرب) «ان العلاقات التي تربطني مع اصدقاء مسلمين وتأملاتي في القرآن قد أدت بي الى هذا الاقتناع، وهو أننا في نهاية القرن العشرين محتاجون الى رسالة الاسلام، نحن الغربيين الذين فقدنا الكثير من معنى الربانية، ونحن المسيحيين بصفة خاصة الذين تأثرنا بالثقافة المعاصرة الى درجة ان ايماننا بالمسيح يتعرض لخطر حقيقي هو التركيز على الإنسان.

على الله تعالى - ومع أننا لا ندعي أن أمثال هذه الآراء هي محل إجماع بين رجال الكنيسة إلا أنها تشير إلى ميدان هام أصبح مفتوحاً للدراسة الجريئة ويجب أن يحظى بالتشجيع ممن يعنيهم أمر الحوار. على أن التركيز على القضايا الاجتماعية، في هذه المرحلة، دون الجدل حول العقائد لا يجب

أن يقلل من الاهتمام بالحوار، ذلك لأن القضايا الاجتماعية مثل البحث عن العدل والسلام، والتحرر، وتأكيد الأخوة الإنسانية من فوق العصبيات الضيقة، وغيرها من العلل الاجتماعية، مثل المخدرات، والكحول، والفساد الخلقي، والشذوذ، وتفكك الأسرة وغيرها، وهي قضايا تهدد الإنسان وتظفر باهتمامه أكثر من الجدل في الغيبات والعقائد، وفي كل هذه الميادين يجد الباحث المنصف حلولا حاسمة في مصادر التشريع الاسلامي لا تتوفر في دين آخر، ودخول المسلمين في الحوار حول هذه العلل ومشاركتهم في تنظيم الجهود لمقاومتها، يعتبر أحد أهم وسائل الدعوة «غير المباشرة للإسلام» والقرآن الكريم يربط بين الدعوة والأمن الاجتماعي ربطا محكما من أمثال قوله تعالى «فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، وبمددكم باموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا» ١٢/٧١، وإذا كان واجب المسلمين تشجيع حوار الحضارات للوصول الى هذه الغايات الإنسانية العامة، فلا شك أن لهم مصلحة خاصة الى جانب ابراز موقف الاسلام، وهي مكافحة هذه العلل والأوبئة في منابعها، ذلك ان الفساد الخلقي بأنواعه ينبت في الساحات الخلفية للحضارة الغربية قبل أن يندفع للعالم الإسلامي مع التلفزيون والصحافة ووسائل الاعلام الأخرى، فإذا استطاع المسلمون أن يعينوا على تشكيل جبهة عالمية لمحاربة هذه المفاسد من خلال الحوار فإنهم يقدمون خدمة جلي لأنفسهم وخصوصا للاجيال النامية من الشباب المسلم البريء.

خامساً: نهاية الاستعمار:

لقد قلنا ما نتصوره كافيا لأغراض هذا البحث عن الصلة بين الاستعمار والتبشير، وما تركه هذا التحالف من أثار مدمرة في البلدان الإسلامية، غير أن مما يدعو للتفاؤل أن المرحلة الأخيرة قد سجلت انحسار الاستعمار السياسي الى حد كبير وقيام نمط جديد من العلاقات السياسية والاقتصادية، ومع ان العلاقة تتسم احيانا بعدم التوازن الذي يحدثه التفاوت

الكبير في موازين القوة بين الدول الكبيرة والصغيرة، ومع ان النشاط التبشيري لا يزال على أشده في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي ولا يزال إحدى أهم نقاط الصدام بين الفريقين، إلا أن من الملاحظ أنه يتعرض أيضاً لتغيرات ايجابية إن تكن خافته حتى الآن، إلا أنها يمكن ان تكتسب أبعادا أوسع إن لاقت التشجيع والرعاية.

لقد التزم الاسلام قاعدة مهمة في أخلاقيات الدعوة تقتضي مزيداً من التأمل من قبل الجانب المسيحي وهي عدم الإكراه، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأسلوب الجدل بالتي هي أحسن وفي ذلك جاء قوله تعالى : ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [**البقرة**: ٢٥٦] وقد سار الخلفاء الراشدون والامراء الصالحون على هذا التوجه القرآني.

وقد نضيف الى التطورات الايجابية لدى الجانب المسيحي في هذا الميدان أن نسمع أصواتا جدية تدعو للعزل بين التبشير والمساعدات الخيرية بحيث تمضي الدعوة الدينية في طريقها من خلال الموعظة والقدوة الحسنة دون استغلال لحاجة الفقير والجاهل والمريض كما هو الحال حتى الآن في مناطق كثيرة من العالم الاسلامي، وبعبارة أخرى الفصل بين (diakony) أو الخدمة، وبين (Kerygma) أو التبيان، كما اقترحه «ارن ردفن» بطرك كراتشي في دراسة بعنوان المفهوم والممارسة في التبشير المسيحي (the concept and practice of Christian mission) والتي قدمها لندوة شامبيزي في ديسمبر ١٩٨١ . وقد اعتمد البطرك في نظريته على اقتباس فقرات من أعمال الرسل كما جاءت في الكتاب المقدس.

ثم انتهى البطرك للقول: «في العهد الجديد يبدو لي أن مهمة التبشير الأساسية هي اعلان الرسالة، لقد كان الانبياء شهودا على حياة المسيح وصلبه، وقيامه، وكانت مهمتهم، أن يشهدوا على ذلك امام الناس جميعاً لعلهم يؤمنون، وعلى اساس هذه النظرية المركزية في الرسالة فإن الإنجيل قد وضع فكرة خدمة المحتاجين في منزلة ثانوية، وبالتأكيد أقل أهمية مما

تمارسها بعض الكنائس الحديثة اليوم».

أما ميشال لولونج فقد كان اكثر وضوحا كما ذكرنا سابقاً - حين أبدى استغرابه (ان تتحدث الكنائس لغتين مختلفتين واحدة تدعو للحوار الذي يفترض احترام ايمان الآخرين، وفي نفس الوقت تشجيع التبشير بينهم كأنه لا يوجد خارج الكنيسة والإيمان المسيحي لقاء حقيقي وعميق بين الله والإنسان، وقد أورد الكاتب نقاشاً دار بين احد المبشرين المتحمسين والبابا بولس السادس، حين طلب الأول بإقامة سد أمام زحف الاسلام، فأجابه البابا قائلاً ان ما نحتاجه الآن هو الحوار وليس السدود! مما يعني أن المراجع العليا في الكنيسة لا تزال تتردد في اتخاذ الموقف النهائي من التبشير وعلينا أن نعينها على اتخاذ القرار الصائب والوحيد وهو إيقاف التبشير في البلاد الاسلامية جملة وتفصيلاً.

أن هذه الأفكار التي عرضنا جزءا منها تشكل منطلقاً جديداً للتبشير المسيحي في البلاد الإسلامية يبعده عن الإكراه والاستغلال، فإذا قبلت دعوة العزل بين الدعوة الدينية وبين تقديم المساعدات الخيرية، فإن احدى العقبات الهامة تكون قد زالت من الطريق، على ان حاجة الشعوب الفقيرة للمساعدة بمكن أن تلبي بصورة أفضل إذا ما قدمت تلك المساعدات للاجهزة المختصة في الحكومات الوطنية حتى لا يكون هنالك اتصال مباشر بين المبعوث الاجنبي والمواطن مما يخدش الكرامة الوطنية ويلقي شبهات على الفكرة الدينية نفسها.

وأذكر في هذا المقام أنني حين كنت عضواً في الوزارة الاردنية في منتصف السبعينات ان زارني وفد من النصارى العرب ولفت نظري لازدياد النشاط التبشيري الاجنبي، وطلب مني أن أعمل على وقفه قائلين: «أن بلادنا لا تحتاج لمن يبشرها بالمسيحية»، وقد أكبرت هذا الموقف منهم لأنه يدل على الوعي والادراك لما يحمله التبشير الاجنبي من أخطار على الوحدة الوطنية، وروح الوفاق بين المسلمين والمسيحيين في الوطن الواحد.

سادساً: الأقليات الاسلامية:

يزداد عدد المسلمين في ديار الغرب باضطراد، ورغم السدود والعقبات التي تقيمها الأحزاب المتطرفة في وجوههم، إلا أنهم بحرزون انتصارات في اكثر البلدان وينالون مزيدا من حقوق المواطنة، ويتسربون للمؤسسات العامة حتى ان بعضهم قد احتل مقعده في برلمانات الدول المضيفة. ويدير البعض الآخر شركات تجارية وفنية كبرى او يعمل في وظائف استشارية لدى الحكومات والمؤسسات، مما يعني أنهم في طريقهم لتثبيت وجودهم والاندماج بصورة مؤثرة في المجتمعات الجديدة . ومع ذلك فان مرحلة القلق لا تزال تنتظرهم، ولا يزال ينظر اليهم كعنصر غريب، تخلف من المجابهات التاريخية المسيحية والإسلام، وهذا التراث العدائي ظهر بوضوح في قضية البوسنة، وكوسوفو، ومقدونيا، ودفع الشعب المسلم هناك ثمن حقد تاريخي لم يعد له ما يبرره. وقد زاد الأمر سوءاً أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في أمريكا وما رافقها من استغلال قامت به الجماعات الصهيونية والمسيحية المتطرفة.

على ان من الانصاف القول ان الرأي العام الأوروبي لم يكن على رأي واحد ازاء هذه القضايا، فقد ظهرت عناصر ايجابية على صور مختلفة حررت نفسها من تراث الماضي، ونظرت لهذه القضايا من زاوية عصرية انسانية.

إن هذه القضايا وملابساتها المختلفة شكلت احدى حلقات الحوار بل التعاون بين المسلمين والمسيحيين وتستحق أن تظل على جدول اعمال الحوار، لأن تيارات التطرف لم تنته، ولا تزال تثير العواصف حول هذه الجماعات الآمنة المسالمة.

أن الأقليات الإسلامية وجدت جلسات الحوار متنفساً لها تثير فيها مشكلاتها ومطالبها بمحضر من القيادات المسيحية، وقد وجدت هذه المطالب سبيلها الى البيانات الختامية التي صدرت عن الحوار مثل النص على احترام حرية العبادة ، وممارسة التقاليد الخاصة، ومعاملة الأقليات الدينية كغيرها من الجماعات الوطنية، ويزيد من أهمية هذه الانجازات أنها

تنقل عبر أجهزة الاعلام وتصل الرأي العام مما يعين على اشاعة جو من التسامح والتعايش البناء. وقد ظهرت أهمية ذلك في الفترة الأخيرة في قوانين وإجراءات في بعض الدول التي اعترفت فيها بالدين الإسلامي وأزاحت كثيراً من العوائق التي كانت تقف أمام اندماج المسلمين في اوطانهم الجديدة. وقد أظهر الحوار حول هذه القضايا تميز الاسلام في النظرة للأقليات الدينية، وما يحيطها به من التقدير والاحترام، ووضع امام الاوروبيين نموذجا فريدا يصلح للاقتباس.

اما بالنسبة للشعوب الاسلامية في اوروبا، فقد اثمر التعاون الاسلامي ـ المسيحي الذي تبلور في الحوار، في خطوات مهمة من بينها عقد المؤتمر البرلماني حول البوسنة في ابريل ١٩٩٤ م وفي قلب البرلمان الاوروبي بحضور كثيف من اعضاء البرلمان، وكذلك في الوفود الاسلامية التي نظمتها رابطة العالم الاسلامي حيث زارت الفاتيكان والعواصم الاوروبية الاخرى حول هذه القضايا، وما صدر بعدها من بيانات، ولا شك ان هذه الخطوات قد اسهمت في تعبئة الرأي العام في اوروبا وساعدت على بلورة مواقف ايجابية أثرت فيما اتخذ من مواقف وقرارات.

سابعاً: لماذا نرفض الحوار مع اليهود؟

بعض المحاورين المسيحيين لا يستطيعون فهم موقفنا حين نرفض الحوار مع اليهود، ويذهبون في ذلك لتفسيرات شتى دون التفسير الصحيح.

أول علامات التناقض - في زعمهم - أننا نبيح الحوار مع المسيحيين بينما ننكره على اليهود، وهم جميعا "أهل الكتاب": بالميزان الإسلامي، وما ينطبق على فريق يجب ان ينطبق على الفريق الآخر.

وقد يظهر في ثنايا الاعتراض إشارات واضحة او مبهمة للمشاعر اللاسامية المزعومة عند العرب والمسلمين، او الى المواقف «اللاعقلاني» حسب رأيهم، الذي وقفه العرب عموما من اسرائيل حين رفضوا الحوار معها، وضيعوا الفرص، وتركوا المشكلة تزداد تعقيدا.

بهذه البساطة او التبسيط يواجهون القضية المأساة، وعندي أن المشكلة ليست بهذا الغموض، لكن أكثرهم ينطلق في البحث من حتميات دينية أو «ثوابت» سياسية تقف سدا امام التسليم بما نراه نحن من البديهيات، ومن الواضح - ايضا - ان الدعاية الصهيونية الدينية والسياسية قد انفردت بهم زمنا طويلا، فصورت لهم المعتدي الذي اغتصب كل شيء في صورة المتسامح العاقل، الراغب في السلام، أما الضحية التي فقدت كل شيء فهي الطرف العنيد، المتعصب، المتعطش للحرب والدماء!. وأمام هذا الموقف الغريب يجد المرء نفسه مضطرا للحديث عن الأبجديات والبديهيات، او عن (البداية) التي تراكم عليها غبار الزمن، وغطتها الحوادث الجديدة طبقة بعد طبقة.

ونقول لهم ان العرب هم أبعد الناس عن اللاسامية لسبب بسيط هو ا ن اكثرهم ساميون وليس معقولاً ان يكره الانسان نفسه او يحتقر سلالته. أما النظرة للدين اليهودي ـ من حيث المبدأ ـ فهي النظرة للدين المسيحي، كلاهما ـ في الأصل ـ رسالة سماوية نحترم رسلها ونؤمن بالحق الذي جاء في كتبها، وليس عندي ما أضيفه أكثر مما قلته في الحديث عن المسيحية ، وما دار في الندوات واللقاءات حول هذه القضية.

إن تاريخ الاسلام كله لم يعرف المذابح المنظمة التي استهدفت إبادة اليهود في العالم المسيحي والتي ترسبت في اللغات الاوروبية مثل Pogrom في اللغة الروسية، أو Holacaust في اللغات الاوروبية الأخرى، والتي ارتبطت - تحديدا - باضطهاد اليهود، واذا كان هناك من حالات تخالف هذه الصورة فهي حالات فردية وقعت في عهود الظلم واختلال المقاييس التي كابدها المسلمون قبل اليهود، ذلك لأن الطغيان لا دين له وان تلفع بالدين وتشدق بشعاراته.

ومع ذلك فان القضية كثيرا ما تقتحم جلسات الحوار الاسلامي ـ المسيحي، وقد يشير أحمد العلماء المسيحيين الى معركة بني قريظة في العهد النبوي فترد عليهم بمنطق المؤرخين المنصفين، ونسوق ـ مثلا ـ على ذلك رأي البروفسور «رودي باريت» في كتابه «محمد والقرآن» حيث يقول

«بالنسبة لمعركة بني قريظة يجب ان نذكر ان تقاليد الحروب في ذلك العصر كانت اكثر قسوة من الأساليب التي اعتدنا عليها بعد توقيع اتفاقية جنيف، وان سياسة محمد يجب ان تحاكم بمقاييس زمانه».

وقد قال هذا الرأي ايضاً الدكتور جوزيف فإن ايس في «الاسلام والاديان الأخرى» حيث قال أن معركة بني قريظة قد جرت وفق تقاليد الحرب في ذلك الزمن، وهناك من المؤرخين من يقول ايضاً أن تطبيق (حكم الله) على قبيلة بني قريظة كان تطبيقاً لحكم التوراة، ومن الذين ذهبوا الى هذا الرأي الكاتب السويسري «مارسل بواسارد» حين ذكر في كتابه «إنسانية الإسلام» أن الرسول صلى الله عليه وسلم وافق على حكم سعد بن معاذ في قضية يهود بني قريظة، لأن سعدا طبق على اليهود حكم التوراة الذي يعرف بقانون اللعان (Loi de L'anatheme). أما عن معاملة اليهود في ديار الاسلام فهناك اجماع على انها اتسمت دائما بالانصاف والتسامح وحرية العبادة، وهنا نعود الى فصل «الاسلام والاديان الأخرى» من كتاب المسيحية واديان العالم «لجوزيف فان ايس» حيث يقول : «في الحقيقة فإن المسيحيين واليهود كانوا يمارسون أديانهم بحرية في العالم الاسلامي اكثر من أي دولة اوروبية أخرى. وبالنسبة لليهود بالذات فان الفارق مع الدول المسيحية كان هائلا وكان الاضطهاد الجماعي نادرا والمسلم الذي يرتكبه يعتبر مخالفا للشريعة الاسلامية»، وقد لا نجد ختاما لهذا المقطع من البحث خيرا من كلام سياسي اسرائيلي معاصر هو الوزير السابق ابا أبيان الذي يقول في كتابه «شعبي اليهود» ان العالم الاسلامي كان الجنة التي لجأ اليها اليهود امام اضطهاد الشعوب الأوروبية!.

إذن لا محل للقول ان رفض الحوار معه اليهود ينطلق من مشاعر «لا سامية» متأصلة، ولا محل للقول بانها تصدر عن تعصب ديني كذلك، فإن الممارسة عبر التاريخ الطويل تقدم للمسلمين شهادة اعتزاز بانهم صانوا العهد والتزموا شريعة الله.

(أ) العدوان الصهيوني الغاشم

ولقد بقي هذا الحال سائداً في البلاد العربية والإسلامية وفي فلسطين بالذات. حيث عاش اليهود والعرب مواطنين وجيرانا متوادين متآلفين حتى أطلت سحب العاصفة الصهيونية فعكرت كل شيء، وأفسدت على العرب واليهود حياتهم وقذفتهم في مخالب حرب لا تبدو لها نهاية. فإذا أراد إنسان منصف أن يناقش هذه القضية من جوانبها الدينية أو السياسية فلا بد أن يبدأ من البداية، والبداية التي يجب أن ينطلق منها البحث هي أن اسرائيل كيان غاصب قام على العدوان، وأن الصهيونية ليس لها أدنى حق في الأرض التي احتلتها وشردت أهلها منها، وما لم ينطلق البحث من هذه البداية فسيظل جدلا عقيماً لا يستند الى اساس صحيح.

لقد ركزت هذه الحركة العدوانية على إشارات روحية جاءت في الكتب المقدسة واختلف الحواريون على تفسيرها منذ القرن الأول للمسيحية. فوضع الصهاينة في برنامجهم تفسيرات خاصة تجعل الإشارات الروحية وعدا إلهيا مقدسا لاستعمار ارض بذاتها، واستئصال شعب بعينه. ومن سوء الحظ ان هذه الفكرة المسيئة للأديان قد انتقلت من اليهودية الصهيونية إلا قطاع واسع من العالم المسيحي وأصبحت مع التكرار والإلحاح وكأنها حقيقة مقدسة لا تخضع للجدل.

إن الخلاف بين المسلمين والمسيحيين خلاف عقيدي نظري اعترفوا بوجوده وتعايشوا معه قرونا كثيرة، ويمكن ان يتعايشوا معه قرونا أخرى، غير أن خرافة "أرض الله لشعب الله"، وتقديم هذه الخرافة بما يخدم الاستعمار الصهيوني، قد احدث تغييرا هائلاً على تلك الأرض وعلى الشعب العربي الذي ورثها عبر آلاف السنين. فكيف تستقيم الخرافة مع العقل؟ ثم كيف يراد لنا أن نقبل بها قاعدة للحوار؟.

لقد تسربت هذه الفكرة للكنيسة الانجليزية وكانت احد أهم الدوافع التي أدت لوعد بلفور وسياسة الانتداب البريطاني وإنشاء فلسطين، ولا تزال

هي العنصر الخفي في السياسة الامريكية الغامضة تجاه العرب واسرائيل، وقد تسربت للكنيسة الكاثوليكية مع إشارات التقارب الجديدة التي جاءت مع وثيقة الفاتيكان المشهورة عن اليهود، ومع زيارة البابا للمعبد اليهودي، مع اشارات أخرى يعرفها المسيحيون ايضاً.

(ب) عقدة الشرعية

في نطاق الدين ـ كما في السياسة ـ فإن اسرائيل تحكمها عقدة (الشرعية)، لأنها الوحيدة التي تدرك حجم الجريمة التي ارتكبتها، وحجم الزيف الذي مارسته لإخفائها، ومن هنا تحرص على ان تظهر مع العرب والمسلمين في حوار مباشر تحقق به اغراضا عديدة.

أول الأغراض هو أن يألف العرب التعايش مع الحقيقة الكريهة لعلهم ينسون البداية التي أشرنا اليها وان يبحثوا ما فوقها من التفاصيل، ويدخل في هذا الغرض أضعاف الحماس عند الجيل العربي الذي لم يعاصر الكارثة ولم يشهد البداية. ومع ضعف الحماس تزول اسباب الاستعداد ودوافع التضحية والشهادة التي يجب أن تتوافر لنقض تلك البداية الظالمة. وهو ما أشار اليه بن غوريون أول رئيس لوزراء الدولة العبرية حين قال "اننا نعتمد على الزمن، فالجيل الفلسطيني الذي شهد الكارثة سيموت، وكذلك الجيل الثاني، اما الجيل الثالث فلن يذكر شيئا عن فلسطين" ولو كان بن جوريون حيا هذه الايام لأصابه الذهول لأن نبوءته الفاسدة لم تتحقق لأن من يحارب اسرائيل الآن ويقدم البطولات هم ابناء الجيل الرابع من الشباب العربي المسلم!

ومن الاغراض ايضاً ان يقتنع الطرف الثالث ـ وهو المسيحي في هذه المعادلة ـ أن القضية باتت قضية عادية (باردة) وما دامت البداية قد دفنت في تراب النسيان فليس هناك عجلة في بحث التفاصيل او عدم بحثها على الاطلاق، لان الوقت يعمل الى جانب اسرائيل، وكلما مرت السنين كلما رست جذور الظلم والاغتصاب ولا يبقى مجال الا لمناقشة الفروع والتفاصيل.

ومن الاغراض السياسية ان تيأس الدول او الجماعات التي لا تزال

تناصر الحق العربي وخصوصا في آسيا وافريقيا حين ترى العرب والمسلمين يحاورون اليهود في أمور الدين وأمور السياسة، ومن هذا المنطلق يقوم زعماء اسرائيل بزيارة لبعض العواصم العربية حتى لو لم تسفر الزيارات عن شيء، ومن هذا المنطلق ايضا يأتي مندوبو اسرائيل ومعهم حشود صحفية وإعلامية لتغطية اللقاءات وحتى لو كان هناك تصريحات مناوئة لاسرائيل والصهيونية فهي مقبولة عندهم مقابل الثمن الضخم الذي يقدم وهو تركيز الشرعية ودفن البدايات.

(ج) مفهوم الحوار عند الصهاينة

إن محاولة استدراج المسلمين للحوار مع اليهود الصهاينة محكوم بهذه الخلفية التي رسمناها، فإذا انتقلنا الى بحث الحوار المسيحي ـ اليهودي الذي بدأ قبل عشرين سنة نجد ان انه ليس مما يشجع على الاطلاق، ذلك لأن نتائجه تقع كلها في حجر اليهود، والمسيحيون هم الغارمون في النهاية، والتنازلات كلها من جانب واحد والمكاسب كلها لجانب واحد هي إسرائيل.

لقد قدمت الكنيسة تنازلات كثيرة تمس ركائز التراث المسيحي، وفي طريقها لذلك اوقعت بالعرب اضرارا جمة، لكن موقف اليهود المقابل بقي الموقف العنيد الصلب الذي ينضح بالكبر والغرور.

إن الموقف اليهودي يتركز في أمور لا مجال فيها لخداع النفس:

أولاً : أن اليهودية – في زعمهم – هي الدين الصحيح، وما جاء بعدها كذب وتزييف وادعاء، وقيام اسرائيل – عندهم – دليل على ذلك.

ثانياً: إن على اليهود ان يستخدموا (عقدة الذنب) حتى يحملوا الآخرين على تنازلات دينية عميقة تزلزل العقائد اكثر فاكثر.

ثالثاً: إن أي تنازلات دينية من المسلمين او المسيحيين لا تفسر عندهم بانها تصدر عن إنسانية أو كرم أخلاق، ولكنها الثمن الذي يدفع لليهود تعويضا عن الاضطهاد، وهي عندهم دلائل ضعف الاديان واهتزازها.

رابعـــاً: استخدام المسيحية كمركز ضغط على المسلمين لاستدراجهم الى محاورات من نفس النوع تحقق نفس النتائج، وبذلك يتحقق الحلم اليهودي الأزلي في تحطيم الأديان لصالح الدين الواحد الصحيح - كما يزعمون - .

خامساً: ان النبؤات المسيحية التي تشترط وجود دولة صهيونية في فلسطين، تمهيدا للعودة الثانية للمسيح ومنها نبؤة يوحنا أو «ارمجدون»، تنتهي للتأكيد ان المسيح العائد سوف ينصر اليهود بالقوة، لذلك كان استراتيجيتهم تقوم على الإفادة من بدايات النبؤة ثم التحوط من نهايتها ـ كما اشارت لذلك بربارة تودشمان في كتابها «الكتاب المقدس والسيف في فتح بيت المقدس» وقد يكون دور الصهيونية الراهن في تأجيج الصراع بين الاسلام والمسيحية احد اركان استراتيجية التحوط.

(د) تقرير الحاخام سيجمان

لا أريد أن أذهب بعيدا في تسقط الأدلة على اثبات ما ذهبت اليه، وحسبي تقرير وضعه الحاخام هنري سيجمان الأمين العام التنفيذي لمجمع المعابد اليهودية الامريكية الذي يضم مختلف التيارات الصهيونية في الولايات المتحدة، وهو مقدم للاجتماع الخامس لمجلس المجمع الذي عقد في القدس مؤخرا، فالتقرير وصاحبه والمكان الذي ضم الاجتماع الخامس يعكس الذروة في "استراتيجية" القيادة الدينية اليهودية التي مارست الحوار، ويجب أن يؤخذ كلامه بما يستحق من الاهتمام.

يمهد الحاخام لموضوع الحوار بهذه الكلمات «أن السنوات العشر الماضية من الحوار مع الكنيسة المسيحية قد بدأت باعلان الفاتيكان في حق الشعب اليهودي «وثيقة التبرئة» ثم بنشر التوجيهات الكنسية لتطبيق ذلك الاعلان، وفي تقديري انها تشكل خطوات جيدة للأمام، وإن كان قد بقي الكثير مما يمكن ان يسبب مصادمات وعناء للشعب اليهودي». وبعد ان يوجه لمستمعيه

اسئلة كثيرة عن الحوار وشروطه، وأهدافه القريبة والبعيدة، يجيب بوضوح قائلا «أن ما يدفع اليهود لقبول الحوار مع المسيحية هي الاعتبارات «التاريخية» وليس الثيولوجية أو «الدينية»، ثم يمضي قائلا «بالنسبة لليهود، فان المشكلة في العلاقات مع المسيحيين محكومة بتاريخ المواقف والممارسات المسيحية إزاء الشعب اليهودي، الذي عاش العذاب والاستشهاد».

ويظهر بوضوح من هذه الأقوال ما ذهبنا اليه، فالحوار مع المسيحية يجري حول التاريخ وليس حول العقائد، لأن التاريخ يدور حول الاضطهاد والتعذيب والمذابح المزعومة. أما الحوار حول الدين فقد يعني اعتراف اليهود بامر مرفوض او التسليم بعقيدة ينكرونها، وبمعنى آخر فان الحوار التاريخي يركز، على عقدة الذنب عند المسيحيين، ويدفع للاعتذار المصحوب بالتنازلات، أما البحث في العقائد فقد يحمل خطر تنازلات او تفسيرات مقابلة من اليهود وهذا ما لا يسمحون به بحال.

وإذا ظنت الكنيسة أنها قد خلصت من عقدة الذنب واستراحت من قصة الاضطهاد ودفعت ثمنها من التنازلات والتعويضات، فيجب ألا يسمح لها بذلك، حتى تظل حبيسة في ركن «العقدة» تشتري الخروج منها بتنازلات وتعويضات لا تكاد تنتهي، والكثير من التنازلات يقع على حساب المسلمين في اكثر الاحيان.

ولذلك نرى الحاخام يقول «أن مواجهة صريحة مع التاريخ، وبصورة خاصة مع (آشويتز)، وهي المذبحة التي ينسبونها الى ادولف هتلر ـ تدعو المسيحيين لأن يخضعوا تراثهم التاريخي الى دراسة مفصلة. ومما يحمل بصيص الأمل ان بعض كبار رجال الدين المسيحيين يؤكدون ان هذا الاعلان لا يتعدى تبرئة الشعب اليهودي من دم المسيح، ولكن نتائجه تظل دون ما نريد، هناك اشياء يجب ان تعمل»، ثم ينتقل التقرير لختامه المنطقي من وراء الحوار مع المسيحيين ومن وراء الحوار مع المسلمين ايضا اذا سيطرت عليهم الغفلة وروح التسامح الغبية ـ والختام هو دفع الحوار لخدمة شعب الله في

ارض الله - كما يزعمون -. ثم يقول الحاخام سيجمان كلاما طويلا خلاصته، «الواضح أن المسيحيين سيكونون اكثر راحة لو أنهم تعاملوا مع قضية اسرائيل كظاهرة سياسية فقط، أو لو سلمنا بأن اسرائيل ستقدم نفسها كمشكلة سياسية وليس دينية، فان الصداقة التي يجب أن ينتج عنها هذا الحوار ستكون فارغة من أي معنى او محتوى إذا سمح لاسرائيل ان تنهار أو تضعف».

ثم يستشهد التقرير بأقوال زعيم ديني مسيحي معروف هو «جاك ماريتان» حيث يقول : أن محاولة رفض العودة لاسرائيل من جانب بعض اليهود والتي اعطته ملجأ في هذا العالم، يعني السماح بان تنزل المعاناة والآلام على هذا الشعب مرة أخرى. إن معاداة اسرائيل أو «اللااسرائيلية» أسوأ من «اللاسامية»، والملاحظ في هذه الفقرة الأخيرة أن اليهود يكيلون بكيلين مختلفين، ففي الوقت الذي يصرون فيه على أن يدخل الجانب المسيحي لساحة الحوار من الجانب التاريخي وليس الديني، إثارة الجوانب الدينية في أجهزة الإعلام التي يسيطرون عليها، حتى يظل في أيديهم عصا النبوات والخرافات يطرقون بها رؤوس المحاورين من المسيحيين أو المسلمين، ايضا اذا استدرجوا لهذا الحوار.

أما علاج ذلك كله في نظر التقرير وفي نظر العناصر الموالية لليهود بين رجال الكنيسة فتقدمه وثيقة التوجية لاعلان الفاتيكان في فقرة تقول «يجب ان نعامل اليهود بالمقاييس التي يعاملون بها انفسهم». وهذا هو الـ«كارت بلانش» المقدم لهم، وما عليهم إلا ان يفسروا ما يعجبهم من فصول التوراة والتلمود، ثم يطلبون فتستجاب المطالب دون حدود ولا قيود.

هذا هو نمط الحوار المسيحي ـ اليهودي الذي بدأ منذ عشرين سنة والذي يراد لنا ان ننضم اليه بشروط اليهود التي لا تتبدل ولا تتغير مهما تبدل الآخرون.

لقد ظهر ذلك لي بوضوح في مهرجان كبير نظمته مؤسسة «سانت أجيدو» في بوخارست قبل عدة أعوام تحدث فيها الحاخام (لاو) الحاخام الأكبر لاسرائيل وكرر مفتريات الصهيونية حول السلام والقبول بإسرائيل، وقدم الأدلة على ذلك باستقبال الزعماء العرب له، ثم قال على لسانهم ما يخدم البرنامج الصهيوني، ولولا ان اعضاء المنظمات الإسلامية وزعوا انفسهم على جلسات المؤتمر وفندوا أقواله لاعتبر المشاركون المسيحيون وهم يقدرون بالألوف من رجال السياسة والاعلام ان الحاخام قد نقل اليهم الصورة الحقيقية.

لقد أطلت قليلا في الحديث عن الحوار المسيحي ـ اليهودي، لاعتقادي أنه يشكل قضية من أهم القضايا التي تلقي بظلها على جلسات الحوار، وكان دور المحاور المسلم دائماً يهدف الى امور اساسية منها: تحذير المسيحيين من مغبة الارتماء في احضان الصهيونية وخطرها على المسيحية نفسها في المدى الطويل، وإظهار مدى الظلم الذي يلحقه هذا التحالف بشعب بريء في ارض مقدسة شهدت ميلاد المسيح وديانته.

خاتمة:

أولاً: يتضح في كل ما سبق أن حوار المسلمين مع أهل الحضارات المختلفة أصبح ضرورة ملحة، إذا أردنا تجنيب العالم إخطار المجابهات والحروب، ومن حسن تقدير الله أن هذه الضرورة يحتمها الإسلام أيضاً، ويضع لها ضوابطها الشرعية وقواعدها الأخلاقية، في مثل قوله تعالى «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن، إلاّ الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم والهنا والهكم إله واحد ونحن له مسلمون ٤٦/٢٩ ومن ذلك يتضح أن حدود الحوار مفتوحة لا يحدها حد، إلاّ أن يستخدم الحوار كسبيل لتكريس الظلم والعدوان - كما هو الحال بالنسبة لإسرائيل.

ثانياً: ويقتضي الحوار أن يكون المسلمون جبهة واحدة، تصدر عن خطة

واحدة، تحدد للحوار أهدافه ومراميه حتى يحقق الأغراض التي توخاها الإسلام، وهي إقامة أسرة عالمية من المؤمنين بالله الواحد، يكون هدفها خدمة الحق والعدل، وتأكيد الاستقرار العالمي، ذلك أن اختلاف الرؤى وتباين الاجتهاد والمواقف، يصنع ثغرات يمكن أن ينفذ منها الذين يضمرون استغلال الحوار لأهداف تخالف الغايات المرجوّة، بهدف إضعاف مناعة الصف الإسلامي.

ثالثاً: مع أننا نرى أن يقتصر الحوار على وضع خطط التعاون في الأمور الاجتماعية العامة كالعدل، والسلم، والتضامن في محاربة الأوبئة الاجتماعية كالمخدرات والكحول، وضمان كيان الأسرة، ومنع الفساد بكل أشكاله، دون الدخول في جدل حول العقائد. غير أننا نرى أن يكون المحاور المسلم متمكناً في الأمور الشرعية مدركاً للأبعاد الدينية الإسلامية وغيرها، قادراً على إبراز وجهة النظر الإسلامية، بالأسلوب الحسن الذي أمرت به الآية المشار إليها، وآيات أخرى من الكتاب العزيز من مثل قوله تعالى ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ وقوله - سبحانه - معلياً شأن المؤمنين الذين خصهم بهذه الفضيلة ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ [**الحج**: ٢٤]. كما أن من الضروري الإلمام بتاريخ الديانات الأخرى وعقائدها وكتبها المقدسة لديهم.

لقد وجدت - من تجربتي الخاصة - أن الحوار في المشكلات الاجتماعية كثيراً ما يصل إلى الجذور العقائدية، لا سيما وأن الإسلام قد حدد لكل هذه المشكلات أسباباً للعلاج مما لا نجده في الأديان الأخرى، ولا شك أن العلاج يكون أكثر جدوى إذا ساندته نصوص شرعية من الكتاب والسنة، بالإضافة إلى أن لقاءات الحوار تتخللها - عادة - مناسبات اجتماعية وندوات فكرية أو دينية تطرح فيها أسئلة حرّة، ومن هنا كان لا بد للمحاور المسلم أن يكون ملمّاً بالحلول الإسلامية، ونظائرها في الديانات الأخرى.

رابعاً: من القضايا الهامة التي ينبغي أن يحيط بها المحاور المسلم،

إحاطة كاملة هي "عالمية الإسلام" وهو موضوع بالغ الأهمية في العالم المعاصر الذي يتجه نحو العالمية بالرغم من وجود مجابهات عنيفة في الكثير من مناطق العالم، وعالمية الإسلام كما لا يخفى، تقوم على الحرية، وتكامل المصالح، والمساواة بين الألوان والأجناس، وفي هذا السياق يمكن للمرء أن يجد آيات كثيرة في القرآن الكريم، والسنة النبويّة المطهّرة.

والإسلام ينفرد بهذه الخصوصية التي يفتقدها الإنسان المعاصر، كما يشير القرآن الكريم ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ [**البقرة**: ١١٣].

خامساً: والاعتراف الإسلامي بالأديان السماوية على ما يوجد فيها من أباطيل، يقود لموضوع هام آخر، هو ما يكنه الإسلام من احترام للأنبياء السابقين، وإعلاء مكانتهم، ويكفي أن نقارنه بين موقف القرآن الكريم من إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان وأنبياء التوراة جميعاً، وبين صورتهم في التوراة، إلى تقديمهم كزناة، وقتلة، ومغتصبون، ليس لهم من فضيلة خلقية سوى توسيع ملك إسرائيل على حساب الشعوب المجاورة.

إن التطلعات الروحية الحالية سوف تقود الإنسانية للبحث عن الأنبياء حملة رسالة الإيمان، ونماذج الأخلاق، وعندها سيصبح الموقف الإسلامي محل التقدير والقبول.

سادساً : يلاحظ أن طغيان الحياة المادية وسيطرة الآلة على الإنسان، قد أفرز رد العقل المتوقع، فاتجه الناس إلى الأفكار والنظريات الروحية الغالية كالبوذية والهندوكية، والكابالا، والصوفية المفرطة، ويمكن للمحاور المسلم أن يقدم الروحية الإسلامية في صورتها المعتدلة التي تجمع بين المادة والروح ولا تغلب واحدة على الأخرى كما يقول القرآن الكريم ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [**القصص**: ٧٧]. فالإنسان - في المفهوم

الإسلامي - يستطيع أن يرتقي في مدارج الإيمان والصلة بالله، ومن خلال العمل الصالح بكل أنواعه، دون أن يمنعه ذلك من المشاركة النشطة في كل ضروب الحياة الاجتماعية.

سابعاً: تعطى المؤسسات الرسمية والشعبية عناية خاصة للنواحي الاقتصادية، وحرية التجارة، وتحرك رؤوس الأموال، والأيدي العاملة، بهدف تحقيق المزيد من الرخاء، وفي كل هذه الميادين هناك نظريات إسلامية هامة، تتجه لتحقيق الخير للإنسان، دون أن يقع في محظورات السيطرة، والاستغلال، والاحتكار، وغيرها من الانجرافات التي تفسد حياة الإنسان، وتقود للخلل والأزمات، ومن هنا كان لا بد للمحاور المسلم أن يطلع على هذه النظريات وأن يتحدث عنها كلما واتت الفرصة.

ثامناً: في جلسات الحوار يجب أن يحيط المحاور المسلم بالعقبات التي أشرنا إليها في ثنايا هذا البحث، والتي تسمم إجراء الحوار، وأن نبرزها كلما سنحت الفرصة وبالأسلوب المناسب، ونخص بالذكر، التبشير المسيحي في البلاد الإسلامية وآثاره الضارة على فكرة التديّن عموماً، والحملة الظالمة على الإسلام التي لا يوجد من مبرر لها، والدعم الغربي الأعمى للاحتلال الصهيوني، وأن يكون المنطلق من إثارة هذه العقبات هو الحرص على الحوار، والتفاهم، وتحقيق العدالة، وهذه القضية - بالذات - تحتاج إلى وضع منهج للخطاب الإسلامي المعاصر، وأسلوب طرح مثل هذه القضايا في اللقاءات، وحبذا لو قامت المنظمات الإسلامية المعنية بالحوار لعقد دورات تدريبية حولها.

أبيض